تاريخ الاستلام:2020/08/07 تاريخ القبول: 2020/09/01

إشكالية المنهج والحقيقة بين "هانز غادامير" و"بول فيرابند"

The problematic of method and truth between"Hans Gadamer" and "Paul Feyerabend "

حمدان بوصالحيح*

Bousalhihh@yahoo.fr

جامعة الجلفة

(الجزائر)

ملخص:

يتناول هذا المقال إشكالية العلاقة بين الحقيقة والمنهج في مجالي العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية من خلال المقاربة التأويلية لـ "هانز غادامير"، والمقاربة الابيستمولوجية لـ "بول فيرابند"، ويهدف المقال إلى الكشف عن الأبعاد الفلسفية و الابيستمولوجية لهاتين المقاربتين.

كلمات مفتاحية: غادامير، الحقيقة، المنهج، التأويلية، فيرابند

Abstract:

problematic relationship This article deals with the between truth and method in the fields of the humanities and natural sciences through the hermeneutic approach of "Hans Gadamer" and the epistemological approach of "Paul Feyerabend ". The article aims to reveal the philosophical and epistemological dimensions of these two approaches

Keywords: *Gadamir, Truth, Method, Hermeneutics, Feyerabend.*

.

*المؤلف المرسل.

مقدمة:

تعد ضرورة تحديد منهج البحث والممارسة العلمية والفلسفية المبدأ الأساس الذي قامت عليها تصورات الفلاسفة والميتودولوجيين من "أرسطو" إلى "كارل بوبر" ومرورا ب "فرانسيس بيكون" و"ميل" "وديكارت"، الى فلاسفة التحليل المعاصر، فقد جعل "أرسطو" من القياس، المنهج الوحيد والضروري لقيام العلم، وألح "ديكارت" على أن البحث في المنهج يعد من أهم المشكلات، وأولاها عناية في مهمة الفيلسوف، فالشعور بضرورة المنهج هو أول ما يلزم من أدوات التفلسف(عثمان أمين، 1969، 77) ، طبقا لمقولته:" خير لنا ألا نفكر، من أن نفكر بدون منهج"، واعتبر "الاستقراء" عند "التجريبية المنطقية" الطريقة الوحيدة واللازمة لتخليص العلم من المتافيزيقا، وجعل "كارل بوبر" من قواعد التكذيب شرطا لازما لتمييز العلم عن اللاعلم، وجعل فلاسفة التحليل المعاصر من التحليل المنطقي المنهج الوحيد لقيام فلسفة علمية، لكن التحولات التي عرفها الفكر العلمي والفلسفي المعاصر أدت إلى إعادة النظر في طبيعة العلاقة بين المنهج والحقيقة، وتجاوز هذا المفهوم العقلاني الصارم للمنهج، الذي لم يعد صالحا لفهم التاريخ المعقد للعلم والمعرفة والتنوع الإنساني، بل أن أكثر العقبات الابستمولوجية التي تقف أمام تقدم الفكر العلمي والفلسفي هي في حقيقة الأمر هي عقبات منهجية، وتجاوزها إنما يعني رفض هذه المنهجية وابتـــكار وسائل جديدة تمكننا من تجاوز تلك العقبات(حسن عبد الحميد، 1992، 232) ، وهذا ما جعل الكثير من الميتودولوجين وفلاسفة العلم المعاصرين يدعون إلى تجاوز فكرة المنهج الواحد، وإعادة طرح مشكلة العلاقة بين المنهج والحقيقة سواء في مجال العلوم الإنسانية أو في مجال العلوم الطبيعية.

وتعد المقاربة التأويلية التي قدمها "غادامير" من خلال مؤلفه الشهير "الحقيقة والمنهج"، والمقاربة الابيستمولوجية لفيلسوف العلم المعاصر"فيرابند" من خلال مؤلفه "ضد المنهج" من أشهر المقاربات التي تناولت مسألة الحقيقة والمنهج، ومن هنا جاءت هذه الورقة البحثية لتتناول إشكالية المنهج والحقيقة من خلال هاتين المقاربتين، فما طبيعة العلاقة بين هاتين المقاربتين؟ ما طبيعة العلاقة بين المنهج والحقيقة عند كل من " هانز غادامير" و"بول فيرابند"؟

هل دعوة غادامير الى فك الارتباط بين المنهج والحقيقة هي دعوة الى اللا منهج ؟

هل مناهضة فيرابند للمنهج كما يشير إليه عنوان كتابه "ضد المنهج" إلى اللا منهج ؟

ما هي الأبعاد الفلسفية والابيستمولوجية لهاتين المقاربتين؟

الحقيقة واللا منهج من منظور تأويلية غادامر :

تهدف تأويليّة **"هانز جورج غادامير"**(1900ـ 2002) H. G. Gadamer سواء في مؤلفه الرئيس" **الحقيقة والمنهج** "أو حتى في**"فلسفة التأويل** " إلى تقويض الفكرة الجوهرية التي قام عليها العلم الحديث في الغرب والقائمة على مبدأ التلازم بين الحقيقة والمنهج ، وان المنهج والعلم هما السبيل الوحيد لبلوغ الحقيقة، كما ينتقد "غادامير" الهرمنيوطيقا التقليدية ، خصوصاً عند "شليرماخر" و "دلتاي" باعتبار أنها لم تستطع أن تتخلص من النزعة الموضوعية في تفسير النص، وهي النزعة التي ارتبطت بنموذج المنهج السائد في العلم الطبيعي الحديث، إن حصر الممارسة الهرمينوطيقيّة ضمن الميتودولوجيا ـ خاصة في مجال العلوم الإنسانية ـ يقتل تلك الممارسة ويسلبها معناها الإنسانيّ الذي يجب أن تعبر عليه، فالظاهرة التأويليّة ليست أساسًا مشكلة منهج على الإطلاق، وهي لا تعنى بمنهج للفهم بوساطته تُخضِع النصوص لبحث علميّ؛ مثل جميع موضوعات التجربة الأخرى .إنّها لا تُعنى ابتداءً ببناء المعرفة المثَبَّتة، حتى تفي بمطالب النموذج المنهجي للعلم؛ مع أنّها تُعنى بالمعرفة والحقيقة أيضًا (غادامير هانز،27،2007) .

لقد اتخذت الهورمينوطيقا مع "غادامير" مفهوما جديدا أصبحت بموجبه بحثا في الشروط التاريخية والانطولوجية للفهم لقد سلك "غادامير" مسلك "هيدغر" في نقد الهرمينوطيقا التقليديّة، واعتبر أنّ القضية الأساس لا تكمن في الطريق الميتودولوجي للفهم بقدر ما هي

فهم الفهم نفسه، وكشف مساراته التاريخيّة والسياقيّة والجماليّ، يقول "غادامر" :« وجدتُ- من جانبي -المنطلَق الأوّل في نقد المثاليّة والمنهاجوية اللتين ميّزتا عهد نظريّة المعرفة امتداد مفهوم الفهم إلى "الوجوديّ" عند "هيدغر" بمعنى التصميم الحاسم **"للدازاين"** (الوجود ـ في العالم) يعبر عندي عن مرحلة حاسمة؛ إذ حملني هذا المفهوم على مجاوزة مناقشة المشكلات المرتبطة بنقد المنهج، لتوسيع مسألة التأويل في ما وراء حقل العلم وإدراج تجربَتي الجمال والتاريخ » (غادامير، هانز،2006 ،175)

فليس هناك ـ حسب "غادامير"ـ ارتباط لرزمي بين الفهم والمنهج، فالفهم فاعليّة إنسانيّة تسمو على المناهج؛ الفن استيعاب رمزيّ للكون يشمل مختلف العناصر الثقافيّة التي تساعد الإنسان على كشف أسرار محيطه وعالمه، إنّه أنسنة الإنسان عبر اللغة التي بها تُفهم الأشياء ومن خلالها، الفهم هو إجراء وساطة بين الحاضر والماضي، وتطوير في الذات لكلّ السلسلة المرتبطة بالمنظورات التي يحضر عبرها الماضي ويتوجّه إلينا (غادامير، 2006، 5).

إن هرمنيوطيقا "غادامر" لا تبحث عن جملة من القواعد والمبادئ للفهم والتأويل، وإنّما هي بالأحرى هرمنيوطيقا انطولوجية تبحث في شروط الفهم وإمكاناته أكثر مما تبحث عن قواعد أو تقنيات له، إنها محاولة لفهم ما هي العلوم الإنسانية حقيقة، بتجاوز وعيها الذاتي المنهاجي، وما يربطها بكليانية تجربتنا للعالم يقول "غادامر": « لئن جعلنا الفهم موضوع تفكيرنا فليس المرمى من وراء ذلك هو فن الفهم أو تقنية الفهم على النحو الذي كانت تسعى إليه الهيرمينوتيقا ذات الطابع الفيلولوجي واللاهوتي (...) إذ ليس من اهتمامي أن أضع قواعد للعلوم أو لصروف الحياة ، بل أسعى إلى تصحيح التفكير الزائف في ماهيتها» (غادامير، 2007، 29، 30).

تهدف تأويلية "غادامير" إلى تقويض فكرة الموضوعية، وتجاوز الطابع المنهجيّ للحقيقة في مجال العلوم الإنسانية، حتى أن عنوان مؤلفه الشهير ـ**"الحقيقة والمنهج"** ـ نفسه قد يشكل عتبة أولية للقراءة تسهم منذ البداية في فضح تصورات "غادامير" حول فكرة المنهج، إذ أن كلمة المنهج العطوفة على كلمة الحقيقة في العنوان، تضعنا منذ البداية أمام تساؤل حول ماهية العلاقة بينهما، لذلك يذهب بعض الباحثين إلى اعتبار أنّه كان من الأنسب لـ "غادامير" أن يطلق على كتابه عنوان **"الحقيقة واللا منهج"**، (دافيد جاسمير، 2007، 148) في حين يذهب البعض الأخر إلى أن العنوان نفسه "ينطوي على تهكم، فالمنهج ليس الطريق إلى الحقيقة، بل على العكس، الحقيقة تفوت رجل المنهج وتفلت منه(عادل مصطفى،2007، 194) .

فالمنهج لا ينتج في النّهاية إلا ما يبحث عنه أو لا يجيب إلا على الأسئلة التي يطرحها، إنّ أي منهج يتضمن إجاباته ولا يوصلنا إلى شيء جديد، ليس بوسع أية منهجية أن أتبعناها أن توصلنا إلى (الحقيقة (بألف ولام العهد)، وأن المنهج ليس في المحصلة النهائية سوى قالب وإطار جاهز تم إعداده مسبقا لنقيس بناءاً عليه الحقيقة، وبالتالي أن ما يوصلنا إليه المنهج في خاتمة الأمر ليس هو الحقيقة وإنما حقيقته هو بالذات.

إذا كان الارتباط بين المنهج والحقيقة قد حقق بعض النجاح على مستوى العلوم الطبيعة والتجريبية ، فإن الحقيقة في العلوم الإنسانيّة ليست بالضرورة وليدة المنهج؛ أو هي على الأقل، ليست حكراً على التّعامل المنهجي مع العالم، بل هي نتيجة الخبرة المباشرة بالعالم، أو الانفتاح على العالم عبر الفهم.

على الرغم من ان ظاهرة الفهم تتخلل جميع العلاقات الإنسانية في العالم ورغم أنها لها شرعية مستقلة ضمن العلم أيضا فان "غادامير" يرى أن تجربة الحقيقة تتعالى على حقل المنهج العلمي، فالعلوم الإنسانية ترتبط بأشكال من التجربة تقع خارج نطاق العلم: بمعنى أنها ترتبط بتجارب الفلسفة، والفن، والتاريخ نفسه، وهذه هي جميع أشكال التجربة التي ارتبطت بها حقيقة لا يمكن التحقق منها بوسائل منهجية ملائمة للعلم (غادامير هانز،2007، 28)". فالحقيقة في مجال العلوم الإنسانية لا ترتبط بالمنهج العلمي، والعلم ليس هو السبيل الوحيد للحقيقة، ليس العلم مثلما يريد هو أن يقنعنا بذلك هو الشكل الأخير والمؤتمن الوحيد عن للحقيقة، ثمة الكثير من الأسئلة التي لا يملك لها العلم إجابة، وهو مع ذلك يمنعنا من الخوض فيها.

فالمنهج اذن لا يحتوي الحقيقة، بل بالأحرى إن الحقيقة هي من تحتوي على المنهج وتتجاوزه، الحقيقة انكشاف كشف التلاقي بين التاريخ والتراث وأسئلة الحاضر وانصهار أفق الحاضر بأفق التاريخ والتراث فالتراث ليس موضوعا يقف أمامنا وبمعزل عنا، فنحن متموقعون في التراث، وإعادة الاعتبار للتراث جزء من نسيج التأويلية، إنها الحوار بين الماضي والحاضر والممارسة التأويلية ذاتها هي الفهم نفسه (غادامير هانز،2007 15 ،16).

إن ما يريد "غادامير" الكشف عنه هو أولوية الحقيقة على المنهج، لان أي نزعة منهجية لابد أن تفترض وجود عالم سابق على القواعد المنهجية يحدث في خبرتنا الأولية المباشر أي تفترض أولية أفق العالم المفتوح بالنسبة لتحديات وجهة النظر المنهجية (غادامير هانز، 2006، 12، 13).

الجدل والحقيقة عند غادامير.

إذا كانت الحقيقة لا تطلب منهجيا فما السبيل إليها في نظر "غادامير ؟

الحقيقة عند "غادامير" لا تطلب منهجيا بل جدليا ، هذه الطريقة الجدلية هي في الحقيقة نقيض المنهج فهي وسيلة للتغلب على نزوع المنهج الذي يشكل العقل ويصبه في قالب ويحدده مسبقا، المنهج غير قادر في نظر "غادامير" على كشف حقيقة جديدة، المنهج لا يفعل أكثر من التصريح بصنف الحقيقة المضمر سلفا في داخله، أما الجدل فيترك الموضوع الذي يقابله يطرح أسئلته الخاصة التي يفترض الإجابة عنها فالمعرفة الجدليّة تقوم على ترك الموضوع يتحرك بحرية، أي ترك الأشياء والموجودات لكي توجد وتتفتح من جراء ذاتها، وذلك طبعاً، على عكس المعرفة المنهجية التي تقوم بـ تقويل موضوعاتها إن صح التّعبير؛ أي أنها تفرض وبشكل مسبق نوعاً من التفوق الزائف للذّات على موضوعها، ففي "المنهج تقوم الذات العارفة بفرض نوع من السّيطرة والتحكّم والتلاعب، أما الجدل فيترك الموضوع الذي يقابله يطرح أسئلته الخاصة التي يفترض الإجابة عنها. لا سيما أن المرء لا يجيب إلا من خلال انتمائه للموضوع وفيه.(عادل مصطفى،2007، 279 ،280).

فإذا كان "المنهج" ينطوي على ضرب من المساءلة تفتح جانباً واحداً من الشيء، فإن التأويل الجدلي يفتح نفسه لأسئلة الشيء ويتقبل أن يكون هو المسئول لا السائل.

ومحصلة القول ان ما يميز مقاربة "غادامير" حول فكرة المنهج هو أن المنهج ليس هو المصدر الوحيد لتعيين كل الحقائق في العالم، فالفهم الهرمنيوطيقي ليس فهماً أداتياً يحدد المقولات والأطر ثم يبحث عمّا يملؤها بالموضوعات والأشياء، بل هو سؤال أكثر جذريّة من سابقه؛ إنّه يتعلق بالوجود أولاً وبالذّات، لذلك فما تروم الهرمنيوطيقا بحثه هو إقامة هرمنيوطيقا للوجود تتجاوز الوعي الذّاتي المنهجي وتعلو عليه، فمهمّة الهرمنيوطيقا هي انطولوجية أكثر منها منهجية. (سيد أحمد، محمود،1990، 11)

2 ـ ضد المنـهج وإشكالية تحرير العلم من منظور ابيستمولوجيا "بول فييرابند".

يعد موقف فيلسوف العلم المعاصر "بول فيراند" (1924 ـ 1994)Paul Feyrabend من المنهج من المواقف الأكثر جرأة وتميزا في فلسفة العلم المعاصرة، ويكمن هذا التميز في أن "فيرابند" قد نقل مجال البحث، من التساؤل عن المنهج الأكثر فعالية، والأكثر دقة وموضوعية، إلى التساؤل عما إذا كان هنالك حقا منهجا كليا، ثابتا، يتوجب إتباعه، والالتزام بقواعده لفهم ودراسة هذا الواقع العلمي المعقد.

ليس ثمة ـــ حسب"فيرابند" ـــ "منهج علمي، ولا توجد مجموعة من الإجراءات أو مجموعة من القواعد تشكل أساسا لكل نموذج بحث علمي وضمانا له، فعلى الرغم من وجود أنماط للنجاح في العلوم، إلا أنه ليس هناك منهج ثابت، ولا يمكن أن يكون ثمة منهج كلي، فالانجازات التي تمت في مجال العلوم لا يمكن أن تعزى لوجود مبادئ عامة، تغطي كل المجالات، فلا توجد حقيقة كلية، ولا معايير محددة للمعرفة والعقل، وحتى وإن كانت المعايير والقواعد الميتودولوجية مطلوبة من أجل السير العقلاني والمنطقي للبحث (و

خاصة البحث العلمي) فانه يتوجب ألا نجعل من تلك المعايير والقواعد، المعايير الثابتة والوحيدة، لأن ذلك سيكبح مسيرة العلم، خاصة إذا كانت تلك القواعد والمعايير تعبر عن تصورات مذهبية.

كما أن الالتزام الصارم بقواعد المنهج، يؤدي إلى خنق القدرات العقلية، وكبح قوة الخيال، والحد من القدرات الإبداعية، يقول فييرابند: « فالفكرة القائلة بأن العلم يمكن له، وينبغي له أن ينتظم وفقا لقواعد ثابتة وكلية، هي فكرة مثالية وذات بريق خادع، فهي مثالية لأنها تتضمن تصورا مفرطا في البساطة حول ما يملكه الإنسان من استعدادات وقدرات، وحول الظروف التي تشجعها على النمو، وهي براقة خادعة من حيث أن محاولة فرض مثل هذه القواعد لا تخلو من جعل الزيادة في كفاءتنا المهنية لا يكون إلا على حساب إنسانيتنا، فضلا عن أن هذه الفكرة مضرة بالعلم، لأنها تهمل الشروط الفيزيائية والتاريخية المعقدة التي تؤثر في عملية التحول العلمي، إنها تجعل مشروعنا العلمي أقل مرونة، وأكثر دوغماتية. » (Feyerabend P,1981,332)

إن فكرة الالتزام بقواعد المنهج التي ميزت معظم الميتودولوجيات في فلسفة العلم الكلاسيكية والمعاصرة تقوم حسب "فيرابند" على مسلمة خاطئة، وهي الاعتقاد بوجود منهج وحيد ينبغي الالتزام به في الممارسة العلمية، وأن هذا المنهج هو السبيل الوحيد لتحصيل المعرفة واكتشاف الحقيقة.

ويستند "فيرابند" إلى تاريخ العلم للبرهنة على بطلان هذا الاعتقاد حيث يقول: « إن فكرة وجود منهج ينطوي على مبادئ صارمة وثابتة تحكم مسيرة العلم، تواجهها صعوبات جمة عند مجابهتها بنتائج البحث التاريخي، إذ أنه ليس ثمة قاعدة واحدة مهما كانت مؤسسة وراسخة في حقل الابستمولوجيا، لم يتم انتهاكها ولو لمرة واحدة، وهذه الانتهاكات لقواعد المنهج، ليس حوادث عرضة، وليست ناتجة عن نقص في معارفنا، أو عن عدم وعي يمكن تداركه، بل هي على العكس ضرورية للتقدم العلمي، إن الأحداث الهامة والتطورات العلمية الكبرى، كإبداع المذهب الذري القديم، والثورة الكوبرنيكية، وظهور المذهب الذري الحديث، والنشوء المتدرج للميكانيكا الموجية للضوء، لم تكن لترى النور لولا أن ، بعض العلماء والمفكرين، قد قرروا أن لا يلتزموا بقواعد محددة وثابتة، أو لأنهم اخترقوها أو تخطوها عن غير قصد.» (Feyerabend P,1981,332)

كما أن تاريخ العلم، وتاريخ المنهج ذاته يكشف لنا عن عدم وجود منهج محدد لتحصيل المعرفة واكتشاف الحقيقة، فقد كانت المعرفة مؤسسة على التأمل والمنطق، ثم أدخل "أرسطو" إجراء تجريبيا أكثر تطورا، بيد أن "ديكارت"، و"غاليلي" استبدلاه بمناهج ذات طابع رياضي، ثم انصهر كله في نزعة تجريبية متطرفة، غير أن هذه الإعاقات والانتهاكات لهذه المناهج، لا ينبغي أن تؤخذ كباعث على استبعادها(فيرابند بول، 200، 116) فكل هذه المناهج ضرورية لتطور العلم.

إن هذه الممارسة الحرة أو عملية تجاوز المنهج القائم ليست فقط مجرد واقعة أثبتها تاريخ العلم، ولكنها ضرورية لنمو المعرفة وتقدم العلم، وذلك لأن سيطرة المنهج الواحد من شأنه أن يؤدي حسب "فيرابند" إلى تقليص مساحة العلم، ويحرمنا من نظريات كثيرة قد يحالفها الصواب في توسيع معارفنا، فليست هناك مناهج أو قواعد ثابتة صالحة صلاحية شاملة للممارسة والبحث العلمي، يقول "فيرابند" :« إن فكرة منهج كلي راسخ والتي تعد مقياسا ثابتا للوفاء بالمراد، بل وحتى الفكرة التي تقول بعقلانية كلية راسخة، إنما هي فكرة غير واقعية مثلها في ذلك مثل الفكرة التي تقول بأداة قياس راسخة يمكنها أن تقيس أي كتلة من دون أي اعتبار للظروف المحيطة بها، إن العلماء كثيرا ما يعدلون معاييرهم وإجراءاتهم، ومقاييس العقلانية عندهم، لأنهم يتحركون إلى الأمام، ويدخلون مجالات بحث جديدة(فيرابند بول، 200، 116) »

وعلى هذا الأساس يعارض "فيرابند" كل الميتودولوجيات التي التي تفترض وجود معايير وقواعد ثابتة كلية، ولا تاريخية، ولا يجب أن فهم من دعوة "فيرابند" إلى "ضد المنهج"، أو "اللامنهج" non-méthode أن البحث العلمي يسير خبط عشواء، ودون أية قواعد أو إجراءات عملية، أو أنه ينفي المنهج مطلقا، وإنما يعني "اللامنهج": لا يوجد منهج علمي محدد، كلي ولا تاريخي، وليست

هناك مبادئ وقواعد أو شروط مسبقة ثابتة ونهائية تحدد منهج العلم ومسيرته، فاللامنهج هو إجراء فوضوي، في مقابل الالتزام المتزمت بالقواعد والمعايير العقلانية، والغرض منه تحرير العلم من سلطة المنهج، كما أن "اللامنهج" يعني عدم فرض منهج معين، أو طريقة بحث معينة، ثم العمل على قولبة موضوع الدراسة أو البحث داخل ذلك الإطار المنهجي، لأن ذلك لا يناسب الوضع الحقيقي للعلم فقواعد وإجراءات البحث العلمي تتحدد بظروف وأهلية البحث ذاته ومعايير الحكم عليها، وتعديلها أو تغييرها لابد أن تكون متكيفة مع العمليات والمواضيع التي يبحث فيها ، (فيرابند بول، 200، 116) فالعلم ما هو إلا محصلة لعملية البحث وليس لإتباع قواعد معينة، ومن هنا فان "فيرابند" لا يرفض كل الميتودلوجيات السائدة بل يرفض طابعها الإيديولوجي المتمثل في النزعة الكلية واللاتاريخية التي تتصف بها.

ويستدل"فيرابند" على رفضه للمنهج الواحد القائم على قواعد ومعايير ثابتة بأن العلم ظاهرة معقدة وليس نسقا بسيطا منظما، "فكل وضعية علمية واقعية، هي وضعية معقدة، تنمو بكيفية غير قابلة للتوقع ولذلك فانه من العبث أن نتمنى العثور على المنهج الذي يمكن العالم اتباعه.

كما أن العلم ليس نشاطا عقلانيا خالصا، تحكمه مجموعة من القواعد الميتودولوجية والمنطقية، فقد أثبت تاريخ العلم أن العوامل اللاعقلانية، كالخيال، والحدس، والعاطفة، والأسطورة، لها دور كبير في تطوره، كما أن العلماء لم يتقيدوا دائما بهذه القواعد المنطقية والمنهجية، ويعد "غاليلي"، أهم مثال في تاريخ العلم يسترشد به "فيرابند" لإثبات فكرة أهمية التحرر من القيود والمناهج التقليدية، والرأي الشائع والأفكار السائدة وتبني الفروض المعاكسة، وذلك من خلال محاولة "غاليلي" الدفاع عن النسق "الكوبرنيكي" المتعارض مع النسق الأرسطي السائد آنذاك، فعندما أعاد "كوبرنيك" إحياء الفكرة الفيتاغورية عن حركة الأرض، اعترضتها صعوبات تتجاوز تلك التي اعترضت "النسق البطليمي".

وقد دعم "غاليلي" حججه في الدفاع عن حركة الأرض،« بالاستناد إلى **وسائل لاعقلانية** كالدعاية والحيّل النفسية، وأساليبه وتقنياته البارعة في إقناع خصومه، لأنه يكتب باللغة الايطالية بدل اللاتينية، واستنجاده بأشخاص يعارضون الأفكار القديمة ومبادئ التعلم وقواعد المعرفة المرتبطة بها.» (Feyerabend Paul ,1981,152)

إن دفاع "غاليلي" عن الكوبرنيكية لم يقم حسب "فيرابند" على أسس عقلية ومنطقية، بل تدخلت في ذلك اعتبارات لاعقلانية،ومن دونها ما كان للثورة الكوبرنيكية أن تحدث هذا التقدم في العلم، ذلك لأن تقبل الأفكار الجديدة، والنظريات التي تتعارض مع الواقع المألوف، عادة ما يكون عن طريق وسائل غير عقـلانية كالدعـايـة والعواطف والنظريات الخاصة، وتحتاج هذه الوسائل غير العقلانية إلى التمسك بها والإيمان بها حتى تظهر العلوم المساعدة والحقائق، والمناقشات التي تحول هذا الإيمان إلى معرفة صلبة (Feyerabend Paul,1981,156)

ولكن إذا كان "فيرابند" يعارض مشروع العقلانية القائم على المنهج الواحد الثابت، فما هو البديل الذي يقدمه في مقابل المنهج العلمي بالمعنى السابق؟ وهل يطرح "فيرابند" منهجا مغايرا ؟ إن الاجابة عن هذا السؤال تكمن في ما يعرف عند "فيرابند"بالتعددية المنهجية .

من وحدة المنهج إلى التعددية المنهجية:

إن رفض "فيرابند" لوجود منهج علمي كلي ولا تاريخي، ورفضه للعقلانية العلمية القائمة على القواعد والمعايير الثابتة، ونقده لكل الميتودولوجيات المعيارية، لا يعني وقوعه في دوغماتية بديلة، واستبدال قواعد ومناهج بأخرى، بل هي دعوة إلى الاعتراف بأن كل المناهج، وكل الأفكار مقبولة، وهي دعوة ضد التنميط والأحادية، ويتجلى ذالك في قوله:« ليست لدي نية في استبدال مجموعة قواعد عامة بأخرى، بل مقصدي هو إقناع القارئ، بأن كل الميتودولوجيات حتى أكثرها وضوحا وبداهة لها حدودها، وأفضل طريقة لإثبات

ذلك هي بيان حدود ـ بل لا عقلانية ــ بعض القواعد التي لديها الحظ في أن تعتبر من قبل البعض أساسية »(Paul,1981,130 Feyerabend) .

وعلى هذا الأساس يدعو "فيرابند" إلى التعددية المنهجية، التي يعتبرها السبيل الأمثل لتحقيق التقدم في العلم والمعرفة، ذلك لأن وحدة الرأي، ووحدة المنهج تؤدي إلى كبح الخيال وإعاقة العلم، والحد من القدرات الإبداعية للإنسان، كما أن وحدة الرأي كما يقول"فيرابند قد تكون مناسبة للكنيسة والضعفاء والراغبين في إتباع أحد المستبدين أو الطغاة، لكن تنوع الآراء ضروري للمعرفة الموضوعية، والمنهج الذي يشجع التنوع هو المنهج الوحيد الذي يتناسب مع النظرة الإنسانية(Feyerabend Paul,1981,46).

إن التعددية المنهجية التي يدعو إليها "فيرابند" تعددية تؤمن بوجهات النظر المختلفة، وبالبدائل النظرية المتعددة وكل الأفكار والفروض والنظريات، حتى تلك التي تم نبذها في الماضي عن طريق منافسيها، لأنها قد تفيدنا في توسيع نطاق معارفنا.

إن دعوة "فيرابند" إلى التعددية المنهجية، ورفض المنهج الواحد، وإن كانت تتفق في بعض أوجهها مع وجهة نظر بعض فلاسفة العلم المعاصرين، إلا أن أطروحة "فيرابند" حول المنهج والتعددية المنهجية تختلف عن هذه المواقف، ذلك إن السؤال عن المنهج عند "فييرابند"ــ مبدئيا ــ هو سؤال زائف، فليس للعلم منهج معين يمكن تحديده مسبقا والبحث في المنهج عبث لا طائل من ورائه، ومن زاوية أخرى ، فان رفض "فيرابند" للمنهج الواحد وتبنيه للتعددية المنهجية والنظرية، كان الغرض منه تخليص العلم من كافة القيود والمعوقات التي كبلته بها الميتودولوجيات المعيارية من جهة، والرغبة في أنسنة ظاهرة العلم من جهة أخرى « فالتعددية ليست مهمة للميتودولوجيا فقط بل أيضا تشكل جزءا أساسيا للنظرة الإنسانية (Feyerabend Paul,1981,45)» .

إن العلم في تصور فييرابند ليس شبكة من المعادلات الرياضية والعلاقات المنطقية ، بل نشاط إنساني متدفق تشارك فيه كل الفاعليات الإنسانية، العقلية واللاعقلية، ومن ثمة فالمناهج اللاعقلية يمكنها أن تفيد العلم كالمناهج العقلية تماما، فالعقل والمنهج العقلاني هو أحد أوجه تلك النظرة الإنسانية لا وجهها الوحيد.

إن العقل العلمي الذي يؤمن به "فيرابند" هو ذلك العقل المتفتح الذي يعترف بوجود اللامعقول وما يتضمنه من مظاهر عدم الانتظام والتناقض، والثغرات المنطقية، والأساطير والخيال ... فكل إبداع، وكل ابتكار، يتضمن قسطا مما يتجاوز العقل، والعقلنة تستطيع فعلا أن تفهمه بعد الاطلاع، لا قبله(عبد السلام بن عبد العالي، 2006، 39) فالعقل المتفتح قابل لأن يناقش ويتفاعل مع أي شيء، وكل شيء قد يكون من شأنه أن يسهم في تقدم العلم، فكل المناهج، وكل الآراء مقبولة .

خاتمة:

بناء على ما تقدم من تحليل لمضمون المقاربة الهرمينوطقية لـ غادامير، والمقاربة الابيستمولوجية لـ فييرابند حول إشكالية المنهج والحقيقة يمكن حوصلة النتائج المتوصل إليها في النقاط الأساسية التالية:

إن أول ما يمكن الإشارة إليه، هو أن فك الارتباط بين المنهج والحقيقة عند "غادامر" لا يعني أنه **ضد المنهج عموماً، وإنّما هو ضد ما يمكن تسميته بـ "دغمائية المنهج"، أي ضدّ** الإدعاء المزيف بأسبقيّة المنهج على الحقيقة، وضد التفسير المنهجي **الذي ينشد الموضوعية واليقين والدقة والحقيقة المطلقة** ، فالمنهج لا يحتوي الحقيقة، بل بالأحرى إن الحقيقة هي من تحتوي على المنهج وتتجاوزه،بحيث تصبح العلاقة بين الفهم والحقيقة هي علاقة انكشاف وانقشاع، أي حقيقة محايثة لخبرة الفهم، فلا وجود لقواعد قائمة بذاتها تساعد على توضيح ما هو غامض وبهذا المعنى، يصبح الفهم فنّا ومهارة وصناعة. إنه في العمق تجربة انفتاح لا متناهية، تجربة خصبة تجسّد ما يصنعه الانفتاح الحواري من إبداع، ومن هنا فالمنهج عند غادامير هو في الواقع **شكل من أشكال الدوغمائية، التي تفصل المؤول عن العمل، وتقف حائلاً بينه وبين النص .**

إن ما يهدف إليه "غادامير" من خلال وضع حدود صارمة للمنهج هو وضع حد للاحتفاء الابستمولوجي بفكرة المنهج، الذي تشكل في أفق الحداثة الغربية منذ ديكارت، وامتدت نتائجه إلى العلوم الإنسانيّة، ومن هنا جاء التحدي الهرمنيوطيقي لفكرة المنهج .

إن الحقيقة عند غادمير تتجاوز الصيغة العلمية؛ فهي ذات طابع إنساني لها القدرة على إعادة التفكير في علاقة الإنسان بذاته وبالآخرين وبالعالم فلا مجال إذا للاكتفاء بالتطبيق الصارم للبرادغيم العلمي الذي يتأسس على الموضوعية والمنهج العلمي ذلك بالنظر إلى استحالة الفصل بين الذّات وموضوع الدراسة، وبهذا تعد مقاربة غادامير مناهضة للعقلانية العلمية الكلاسيكية ، وهو الهدف نفسه الذي تنشده ابيستمولوجيا فييرابند. .

إن دعوة "فيرابند" الى "**اللامنهج**" لا تعني أنه ينفي المنهج مطلقا، وإنما يعني "اللامنهج": عدم وجود منهج علمي محدد كلي ولا تاريخي، وعدم وجود مبادئ وقواعد أو شروط مسبقة ثابتة ونهائية تحدد مسيرة العلم فقواعد وإجراءات البحث العلمي تتحدد بظروف وأهلية البحث ذاته، فالعلم ما هو إلا محصلة لعملية البحث، وليس لإتباع قواعد معينة، ومن ثم فان "فيرابند" لا يرفض كل الميتودولوجيات التي عرفتها، بل يرفض الطابع الاديولوجي المتمثل في النزعة الكلية واللاتاريخية التي تتصف بها، ويرفض الموقف القائل أن العلم مسلك منهجي صارم له قواعد وخطوات إجرائية تضمن له الموضوعية، فالممارسة العلمية عملية معقدة ومتشابكة، تتعدد فيها المناهج، ويمارس فيها الخيال والحدس، وتتداخل فيها الشروط الثقافية والاجتماعية والنفسية في توجيه التفكير وتسييره.

ان رفض "فيرابند" للمنهج الواحد وتبنيه للتعددية المنهجية والنظرية، كان الغرض منه تخليص العلم من كافة القيود والمعوقات التي كبلته بها الميتودولوجيات المعيارية من جهة، والرغبة في أنسنة ظاهرة العلم من جهة أخرى،

إن العلم في تصور "فيرابند" ليس شبكة من المعادلات الرياضية والعلاقات المنطقية ، بل نشاط إنساني متدفق تشارك فيه كل الفاعليات الإنسانية، العقلية واللاعقلية، ومن ثمة فالمناهج اللاعقلية يمكنها أن تفيد العلم كالمناهج العقلية تماما، فالعلم والمنهج العقلاني هو أحد أوجه تلك النظرة الإنسانية لا وجهها الوحيد.

لقد كانت أراء فيرابند حول المنهج دعوة ضد النمطية وضد وحدة النظر الى الحقيقة من وجهة واحدة وضد سيطرة المنهج الغربي ودعوة الى التفتح والانفتاح على مختلف الثقافات التي تم اقصاؤها باسم الموضوعية والعقلانية والمنهج الواحد.

كما أن فيرابند ليس ضد العلم، وإنما ضد سيطرة العلم وسيادته، وضد مقولة أنه وجهة النظر الواحدة والوحيدة للنظر إلى العالم وتفسيره، فهو واحد فقط من العديد من وجهات النظر التي يجب أن تأخذ في الاعتبار بجدية.

إن الانتقادات التي وجهها "فيرابند" و"غادامير" لمفهوم الموضوعية، ولمفهوم المنهج، كان بسبب أن هذه المفاهيم هي مفاهيم إقصائية تسعى إلى إلغاء أنماط أخرى لإنتاج المعرفة كما تسعى إلى التنميط والوحدة، وهذا ما يتنافى مع الحرية الإنسانية.

تعد أراء "فيرابند" المتعلقة بالتعددية المنهجية واراء غادامير المتعلقة بالفهم الهرمينوطيقي مدخلا نظريا مهما وتعبيرا عن فكر وفلسفة علم ما بعد الحداثة التي قامت كبديل لنموذج العلم الحديث والعقلانية الكلاسيكية القائمة على الموضوعية ، والنظام، والمنهج، وقواعد المنطق الصوري.

قائمة المراجع:

ـ حسن عبد الحميد:(1992): **دراسات في الابستومولوجيا**، القاهرة، المطبعة الفنية الحديثة.

ـ سيد أحمد محمود:(1990)، دلتاي وفلسفة الحياة، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

ـ عثمان أمين :(1969) ، **ديكارت**، ط2، القاهرة،، مكتبة الأنجلو مصرية.

ـ غادامير هانز جورج : (2007)، الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويليّة فلسفيّة، ترجمة :حسن ناظم؛ علي، حاكم صالح، طرابلس، دار أويا.

ـ غادامير هانز جورج : (2006)، فلسفة التأويل، الأصول، المبادئ، الأهداف، ترجمة :محمد شوقي الزين، ط2 ، بيروت، الدار العربية للعلوم؛ الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي؛ الجزائر، منشورات الاختلاف.

ـ فيرابند، بول كارل: (2000)، العلم في مجتمع حر، ترجمة وتعليق السيد نفادي ومراجعة سمير حنا صادق ، مصر، المجلس الأعلى للثقافة

ـ مصطفى عادل : (2007)، فهم الفهم، مدخل إلى الهيرمينوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع.

ـ محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي (2006)، **العقلانية العلمية وانتقاداتها**، ط1، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال.

- Feyerabend Paul Karl :(1997)_contre la méthode:esquisse d'une théorie anarchiste de la_connaissance, Tra . Baudouin jurdant et Agnès Schlumberger, Paris, seuil.